كتب جديدة

الشرق الأوسط والغرب

The Middle East and the West, by Bernard Lewis.
Indiana University Press, 1964.

مؤلف هذا الكتاب ، برنارد لويس ، هو استاذ تاريخ الشرقين الادنى والاوسط في معهد العلوم الشرقية والافريقية (جامعة لندن) ورئيس دائرة التاريخ فيه. والرجل صاحب مشاركة عميقة طويلة في تاريخ العرب والاسلام . وله كتب ودراسات ، على قلتها ، تشف عن فهم عميق لموضوعاته ، وادراك واع لملابساتها، ومقدرة كبيرة على التحليل والاستنتاج ، على ما يبدو من كتابيه « العرب في التاريخ » « وظهور تركيا الحديثة » . وهو واحد من المشرفين على تحرير « المعلمة الاسلامية » .

والكتاب الذي بين ايدينا يتألف من فصول ستة ، هي اصلا ست محاضرات القاها الدكتور لويس في جامعة انديانا بالولايات المتحدة في ربيع سنة ١٩٦٣ . وهذه الفصول الستة هي : صورة تاريخية ، وتأثير الغرب ، والسعي وراء الحرية ، والوطنية والقومية ، وثورة الاسلام ، والشرق الاوسط في الشؤون الدولية .

وما الذي يقوله لنا برنارد لويس في هذا الكتاب؟ اذا كان القارىء يأمل ان يحصل على قصة هذه العلاقات بين الشرق الاوسط والغرب وتاريخها ، فليجنب نفسه مؤونة القراءة . فالكتاب في ١٦٧ صفحة ، ولذلك فهو لا يتسع الا للالمامة المقتضبة . واذاً ، ما الذي نجده في كتاب من هذا النوع ؟ يخيل الينا ان هذا الكتاب الصغير يحلل هذه العلاقات من حيث الاسس التي تقوم عليها بالنسبة للمنطقة وبالنسبة للتأثير والتأثر. ويضع امام القارىء صورة لما طرأ على هذه الآراء التي انتقلت من الغرب الى الشرق الاوسط من تبدل نتيجة لردود الفعل التي ظهرت في المنطقة نفسها . ثم ان المؤلف يتقرى اسباب هذا التبدل وآثاره .

الفصل الاول من الكتاب يضع بين ايدينا صورة حيكت من خيوط الجغرافيا والتاريخ ، عرقاً ولغة وفكراً ودينا . فالمنطقة التي اطلق عليها المؤلف « الشرق الاوسط » كانت في اواخر القرن السادس عشر قد اصبح الاسلام (بسنته وتشيعه) دين الاكثرية الساحقة فيها، وكانت لغات الثقافة والفكر العربية والفارسية والتركية ، وفيها جيوب من اقليات عرقية ودينية وثقافية ولغوية . ولكن المهم هو ان هذه اللغات الثلاث الكبرى ، بوصفها اوعية للفكر ، لم يكن بينها من التعاون ما كان ينتظر لمنطقة يغلب عليها دين واحد ، ويخضع قسم كبير منها للدولة العثمانية . وانقطاع الصلة بين ابناء هذه اللغات الثلاث كان ، كما يبدو لنا ، كبير الاثر في تحجير التفكير وتحجره، الامر الذي استمر الى اواخر القرن الثامن عشر .

وعندئذ يتصل الشرق الاوسط بالغرب ؛ اذ انه الى ذلك الوقت كان في شبه انقطاع عما كان يجري في اوربا منذ عصر النهضة . وهنا يعطينا المؤلف شيئاً مقتضباً عن هذا الاتصال ، الا انه اتصال مقارن — فهو يحدثنا عن تأثر الاتراك العثمانيين والعرب ، كل على حدة ، بالغرب وسبل هذا التأثر . ويستمر هذا التأثر في القرن التاسع عشر ويزداد قوة بتقدم هذا القرن.ويرى الدكتور لويس ان اهل المنطقة تعلموا الكثير من الآراء التي

اخذت تنتشر بين فئات من المتعلمين كانت تتسع تدريجاً ، لكنه يذكرنا بان هذا الاتصال، في القرن الماضي ، لم ينشىء جواً علمياً متصل الحلقات. فكل جيل كان عليه ان يتعلم الامور من جديد . وكان هذا طبيعياً قبل ان تنشأ المعاهد العلمية العليا التي اصبحت، نسبياً، مراكز لهذه الحركات وتكوينها. ويرى ان الذي حدث كنتيجة لهذه الاتصالات بين العالم الشرقي والعالم الغربي هو ان ازمة حضارية اخذ يذر قرنها في الشرق الاوسط بسبب دخول هذه العوامل الاجنبية .

وظهرت في الشرق الاوسط ردود فعل واستجابات متعددة النواحي مختلفة قوة وضعفاً ، يمكن ان نتقرى فيها رغبات متفاوتة ومواقف متباينة . وقد نشأت هذه كلها عن ان مقومات الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية التي قامت بفعل تاريخ الشرق الاوسط الطويل ، والتي قبلها الناس حول سنة ١٨٠٠ على انها لا تقبل التبديل او التحويل او التغيير — هذه المقومات جابهتها آراء جديدة بالمرة وغريبة عنها بالكلية . ولم يكن باستطاعة المؤلف ان يعالج هذه الامور كلها في نطاقها الواسع، فاختار اموراً ثلاثةادار بحثه ونقاشه وتحليله حولها وهي: السعي وراء الحرية، والوطنية والقومية ، وثورة الاسلام .

فهو يعرض لفكرة الحرية السياسية والاستقلال كما فهمها الاوائل من مفكري العرب والاتراك في اوائل القرن الماضي والملابسات العملية والنظرية التي طرأت عليها . فمجالس المشورة التي قامت في تركيا في مطلع القرن الماضي كانت محاولة للافادة من تجارب الغرب في تطبيق الحرية السياسية . والفرق بين المدلول الديني للحرية كما وردت في كتب الاولين والمدلول السياسي العلماني كما فهمه المتأخرون اذ اخذوه عن الغرب ، هو تطور لمفهوم الكلمة فكرياً . وفي هذا المجال الاخير يخلص المؤلف الى القول بان ما رغب فيه هؤلاء النفر — من رفاعة الطهطاوي وجماعته — هو ان الفرد يجب ان ينال العدل في حياته على انه حق لا منة يمنحها . وفي سبيل وضع هذه الفكرة موضع التنفيذ ، اي نقلها من حيز الادراك الى حيز العمل ، كان لا بد من ايجاد وسيلة عملية اي وعاء او آلة تتسع لها . والآلة كانت مجالس المشورة اولاً ، ثم المجالس التشريعية ، ثم المجالس النيابية البرلمانية . ولكن هذه كلها امور غريبة عن المجتمع الذي اخذ بها او أعطيت له . وعندما يتقدم القرن التاسع عشر بالشرق الاوسط، ثم عندما نصل الى القرن العشرين، نجد ان المنطقة تقع تحت الاحتلال الاجنبي ، ويصبح الجهاد في سبيل الاستقلال الباعث الاول على الحركة بين القادة والشعب ، ثم ينتقل مدلول الحرية خطوة اخرى عندما يصبح المقصود منها التحرر من العوز . واذاً فهذه الفكرة التي دخلت نظرة رومانطيقية اول الامر ، لم تلبث ان شحنت بمعان جديدة واتخذت اشكالاً جديدة للتعبير عنها. ومتابعة تطور هذه المعاني والاشكال قضية حرية بالدرس والبحث .

ويفرق الدكتور لويس بين الوطنية والقومية في الغرب ، ويتابع وصول الفكرة الاولى اولاً والثانية بعدها الى منطقة الشرق الاوسط. ويلاحظ ان التكوين التاريخي الاسلامي للشعوب العربية الموجودة في هذه الديار حمل الناس على قبول فكرة القومية بما فيها من عواطف وامان وآمال اكثر مما قبلوا فكرة الوطنية التي ترتبط برقعة من الارض ، بينما كان الفرس اقدر على قبول الوطنية . ذلك بان العرب اخذوا بفكرة الوحدة — وقوامها القومية بملابساتها التاريخية والعاطفية والثقافية وبما تحويه من امل — لانهم شعروا بالحاجة اليها ، بينما كان الفرس اميل الى الوطنية لانهم مجتمعون في رقعة جغرافية ولهم كيانهم السياسي . وقد يبدو من هذا الذي ذكرناه ، كأن الامر الذي انتهى اليه المؤلف بسيط للغاية ، لكن الواقع ان اية مراجعة لاي كتاب قد تسيء اليه عندما نحاول تلخيصه ، فاذا كان الكتاب يتناول هذه القضايا كان تلخيصه ادعى

الى الاساءة . ولذلك فاننا نرجو من القراء ان لا يسرعوا الى الاستنتاج ، فالرجل لا يلقي الكلام على عواهنه ، ونحن لا نقصد سوى ان نشير الى بعض معالم الكتاب ، آملين ان يقرأه من تهمه هذه التطورات التي مرت بالفكرة والمنطقة .

يرى المؤلف ان الحركات البارزة والاصيلة التي قامت في ديار الاسلام منذ ان بدأ الغرب يتصل بها، او تتصل هي به ، كانت اسلامية في جوهرها . فقد عنيت بقضايا الايمان وموقف الجماعة الاسلامية من الدول التي احتلت اراضيها اكثر من عنايتها بالامة او بالبلاد المحتلة . ويعالج هذه الناحية متلمساً خطوطها العامة في المواقف التي اتخذها المفكرون المسلمون من حضارة الغرب وآرائه وتعاليمه وتجاربه . وتبين له ، في بحثه ، ثلاثة مواقف لم تكن كلها متتابعة ولا متعاقبة . فقد كان بعضها ، على تباين في خصائصه ومعطياته، متوازياً خطوطاً، متقاطعاً مكاناً . والمواقف هي : الرفض القطعي مع العودة الى الماضي البعيد ومحاولة الاحياء على نحو ما قام به شاه ولي الله الهندي ، والشيخ تاج الدين السملي الذي جاور في مكة ، والوهابية ، وبعض السلفيين المتأخرين ؛ والموقف الذي يمثله السير سيد احمد خان في الهند ، وعبد القيوم الناصري في اواسط آسيا، والذي سماه المؤلف الموقف التعاوني؛ وثمة الموقف الليبرالي الذي يمثله الشيخ محمد عبده خير تمثيل ، والذي اراد ان يتسع الاسلام للحديث من العلم والتقنية دون ان يتخلى عن خصائصه الروحية ، والذي يعتبر التطور سداه ولحمته .

وثمة حركة اخرى يتحدث عنها المؤلف ، وهي الجامعة الاسلامية التي كان من ابرز الداعين اليها السيد جمال الدين الافغاني .

ويختم المؤلف كتابه بفصل عن الشرق الاوسط في الشؤون الدولية، مبيناً ، باختصار، الدور الذي قام به ، والعوامل التي جعلت منه عاملاً هاماً في هذه النواحي الدولية . ويشير الى الحرب الباردة القائمة بين المعسكرين اليوم واثرها في تطور النظرة الى الشرق الاوسط وتبدل نظرة الشرق الاوسط الى الدول الكبرى ، كما يعرض لقضية الاستقلال في اقطار المنطقة وما ترتب عليها من مواقف .

قرأنا هذا الكتاب وتمتعنا به وافدنا منه بعداً في النظرة وعمقاً في التحليل ، ونحسب ان غيرنا يفيد من الكتاب . ولكن هل خلا الكتاب من مجال للنقد ؟ لا ، ولن يخلو كتاب من مجال للنقد . والذي نود ان نذكره ان المؤلف غربي، وقد وضع هذا الكتاب للقارىء الغربي ، واذاً فقد كتبه بمعرفته وعقله وقلبه هو ، ولم يكتبه بعقلنا او بقلبنا . فاذا قرأنا الكتاب ووجدنا فيه ما لا يتفق مع كياننا الفكري او آمالنا العاطفية ، او ما لا يجاري وجهة نظرنا هنا او هناك ، فذلك امر طبيعي . لكن حسب المؤلف انه عرف ونظر وارتأى وكتب .

نقولا زيادة

في معركة الحضارة

بقلم قسطنطين زريق . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤

اني اترقب منذ ما ينيف على السنة كتاباً عن الحضارة للدكتور قسطنطين زريق . فالدكتور زريق من الرواد القلائل للفكر العالمي في العالم العربي . وهو من المفكرين العرب الواعين الذين يتعرضون للقضايا العربية العامة بنظرة انسانية شاملة، ويحللون ويبسطون القضايا الفكرية الكبرى